كتاب العدد

أطفال بلا طفولة. أطفال فلسطين في زمن الحرب

تأليف الباحثة: شارلوت ستانفورث
ترجمة وإعداد: مركز جنين للدراسات الاستراتيجية
مراجعة: د. تغريد القدسي
قسم علوم المكتبات والمعلومات
جامعة الكويت

يعاني من يعيش ظروف الفقر من مشكلات عديدة لا حصر لها فما بالنا لو أضفنا للمشاكل الناجمة عن الفقر مجموعة أخرى من المشكلات تنتج عن العنف والعيش في أجواء وأزمات متتالية.

يعيش الأطفال الفلسطينيون الذين يشكلون (58٪) من مجموع سكان الضفة الغربية وقطاع غزة في أجواء من الفقر نتجت عن الاحتلال الطويل لأرضهم إضافة لأجواء العنف والنزاع القاسية وما تجلبه.

في كتاب «أطفال بلا طفولة: أطفال فلسطين في زمن الحرب»، الذي كتبته الكاتبة شارلوت ستانفورث البريطانية كرسالة ماجستير قدمتها في الجامعة الأمريكية ببودابست وبناء على تجربتها الميدانية في الأراضي الفلسطينية.

وترجمة الكتاب إلى العربية قام بها مركز جنين للدراسات الاستراتيجية الذي قام بإدارته المرحوم توفيق أبو بكر حتى لحظة وفاته منذ شهرين. ولقد قامت الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية بنشر الكتاب بالتعاون مع مركز جنين للدراسات الاستراتيجية وكجزء من سلسلة الدراسات العلمية الموسمية المتخصصة (مشروع مبارك العبدالله المبارك الصباح).

تأتي أهمية هذا الكتاب من حقيقة أننا نعيش في منطقة محاطة بالعنف والصراع والأزمات سواء في فلسطين، العراق أو غيرهما.

تتعرض الكاتبة شارلوت ستانفورث لوضع الأطفال الفلسطينين تحت الاحتلال والمجبرين على البلوغ بأسرع من الطفل العادي عادة إضافة إلى أهمية أن يضيف كل منهم لمفاهيم نموهم كأطفال مفاهيم لها علاقة بالوعي. والأسرع كذلك. لمفاهيم تختص بالحرية والموت والوطنية. هؤلاء أطفال سلبوا حرفيا من طفولتهم وأجبروا على تخطي وحرق مرحلة الطفولة كاملة من حياتهم.

تصف الكاتبة كيف أن هؤلاء الأطفال يعيشون أحوالاً غير طبيعية يتعرضون فيها لحظر التجول الطويل، إغلاق مدارسهم المتكرر، الانتقال عبر حواجز تفتيش وجنود وسلاح العيش في مخيمات للاجئين بأجوائها المكتظة بالسكان وبما يكتنفها من ضيق عيش.

وفي أجواء الاحتلال هذه يعاني الأطفال تحت ظروف الانفصال عن الوالدين المتكررة نتيجة السجن، ظروف الاحتلال وحتى الموت المحيط.

تؤكد الباحثة شارلوت ستانفورث على قلة الأدبيات المنشورة عن أثر العنف على الأطفال بشكل عام رغم أهميتها.

تلاحظ الكاتبة وتوثق أعراض السلوكيات التراجعية نتيجة للصدمات النفسية والتي تزداد عند أطفال ما قبل المدرسة نتيجة فقدانهم للمهارات الطلابية المتطورة مما يجعل من الرسومات وسيلة ناجحة لعلاج هؤلاء الأطفال. وفرضية البحث أن الأطفال يستفيدون من الرسم باعتباره طريقة بدائية للتعبير عن داخلهم وكما يرونه. هؤلاء الأطفال يعانون من مشكلات دراسية وصداع وأعراض أخرى تتفاقم لبلوغ مبكر أو وقف لعملية تشكيل الشخصية أو حتى تراجع مدمر قد يقود لعنف أو انتحار او مظاهر تدمير ذاتية أخرى وتؤكد الباحثة هنا على أهمية تشجيع هؤلاء الأطفال على التعبير عن النفس مخافة الوصول لمراحل التراجع والتدمير الذاتي.

ومع أن العنف هو أسلوب الحياة العادي للأطفال الفلسطينيين إلا أن الباحثة تؤكد أنه لا يمكن

لطفل أن يعتاد على رؤية هذه القطاعات اليومية مثل المذلة، الخوف، العنف، الموت، الإحباط والعجز.

وتعتبر الكاتبة الرسوم وسيلة ناجحة وفعالة لاستكشاف طريقة تفكير هؤلاء الأطفال والدوافع الكامنة وراء اندفاعاتهم للمواجهة بمعنى رؤية العالم من خلال عيني طفل فلسطين، وتأتي الرسوم. وكما تؤكد الباحثة. «أكثر طريقة بريئة وصادقة لتعبير الأطفال عن أنفسهم».

الاكتظاظ السكاني في كل من الضفة الغربية وغزة من أخطره في العالم وتعتبر اليونيسيف ذلك من أصعب الظروف في هذا العالم، فالأطفال هنا ينالون بالكاد حصتهم من الرعاية الصحية والتعليمية ويضطر الكثير منهم لترك المدارس وعدم التسجيل فيها، وتعاني الإناث أكثر من الذكور كذلك من تراجع التسجيل في المدارس، حيث لم تتمكن معظم الفتيات من إكمال العشر سنوات الأولى من التعليم.

ويضاف إلى كل ذلك ظروف العنف العائلي التي قد تزيد لعنف محيط الاحتلال الذي قد ينجم عن الإحساس بالإحباط من قبل الآباء الذين قد يتعرضون للانتقال، التعذيب، الذل، المهانة.. إلخ.

وتشير الكاتبة إلى خطورة وضع الأطفال الفلسطينيين حيث يعانون من معاناة الكبار الذين يجب أن يكونوا ملاذهم، فالآباء إما بالسجن أو موتى أو يعانون من الإحباط وغيره، والأمهات في أحيان كثيرة تعانين من مشكلات نفسية منها الاكتئاب والقلق وغيره، هؤلاء هم الكبار الذين يجب أن يزودوا الصغار بالطمأنينة والأمان لا يشعرون به أنفسهم، هنا فاقد الشيء لا يعطيه فعلاً. ناهيك عن كل ما سبق يتأثر كذلك تطور هؤلاء الأطفال المعرفي والعاطفي وتتدني مستويات التربية البينية في ظروف الأرق والقلق وهدم البيوت وقتل الإنسان في هذا الوضع المزمن للحرمان والمعاناة الجماعية التي لا نهاية لهما يربى الطفل الفلسطيني.

وتشير الكاتبة إلى أهمية أن نعي أن هؤلاء الأطفال يظهرون شجاعة وقوة هائلة في هذه الظروف ليتعايشوا معها ولكنهم مسكونون بالرعب والقلق اللذين يصعب ملاحظتهما، فهذه مشاعر دفينة لا تبدو للعيان بسهولة، فعندما يكون 83٪ من الأطفال قد تعرض آباؤهم للاعتقال منذ 1967 وهي سنوات الاحتلال فإن هذه المعاناة لا تقتصر على أحد وهذه المخاوف تعبر عن نفسها داخليا بالخوف من الظلام، العواصف وغيرها.

وهنا يشير البحث إلى اختلاف مؤثرات العنف على الأطفال فمن أقساها مثلا تعرض الأطفال للأحلام المزعجة الدائمة التي تضعهم في ظروف إعادة استرجاع وعيش الأحداث المؤلمة والتي في بعض الأحيان تكون إما ملاذاً أو متنفساً لما يعيشونه من إرهاب يومي، إلى جانب هذا تظهر مشكلات العنف في تقليد الإسرائيليين أنفسهم وخاصة بين الذين قد شاهدوا الإسرائيليين يعذبون آباءهم وإضافة لذلك كله فإن التطور الأخلاقي يعاني سلباً حيث النزاع والعنف والصراع أساساً عرقياً، وتأتي الايديولوجيا هنا لتواجه هذا التدني وتزود هؤلاء الأطفال بوعي عميق للأمور وقدرة على التحمل والاستيعاب وهذا ما تؤكده العديد من الدراسات المشار إليها في البحث.

وتأتي الدراسة إلى جزء مهم جداً يبحث في مفهوم السلام في ظل هذا العنف الدائر في الأراضي المحتلة، وهل هناك «أمل» بالسلام لهم أم لا فهؤلاء الأطفال يعيشون حقيقة الحرب ويعتبرون السلام فكرة مجردة لا علاقة لهم بها نتيجة التأثر التراكمي للعنف والصراع، هؤلاء الأطفال بحاجة ماسة للعلاج خاصة إذا ما قورن برسومات يرسمها الأطفال الذين يعيشون في ظروف طبيعية وهادئة.

فالرسم نشاط طبيعي وقد صنفه بعض الباحثين ضمن الألعاب التي يلعبها الصغار وخاصة «لوكية» الذي أصر أن رسومات الأطفال تكون واقعية حتى سن الثامنة أو التاسعة مما يجعل من رسوماتهم أداة مهمة عندما يعانون من مشكلة فهم يرسمون ما يعرفون حقيقته وسماها «واقعية المصادفة» التي تتبعها مرحلة «الواقعية الباهتة» أو «العجز التركيبي» عندما يتطور الرسم بعد مرحلة الخربشة ويحمل مواصفات إدراكية جديدة.

تأتي هنا رسومات أطفال فلسطين ومحتواها والتي تظهر بشكل مخيف بساطة تخفي وراءها قصصاً مروعة، فهي «خربشات أطفال» تخفي حقيقة أن الأطفال يخربشون ولكنهم يحملون رؤوسا مليئة بالصور والأفكار المخيفة، ناهيك عن الجانب الرمزي والنظرة للعالم، هنا يجب أن نقرأ ما بين السطور في هذه الرسومات، تكمن أهمية هذه الرسوم مع الأطفال الفلسطينيين كأداة

تشخيص تعين المعالجين على اتباع طريقة التحدث عن هذه المشكلات أو قص قصة عنها كجزء من العلاج المتكامل.

شملت دراسة شارلوت ستانفورث 49 رسمة لأطفال من الصف الثالث إلى الثامن (8 - 14 سنة) ومن الجنسين وتعود لفترة عام 2000 - 2001 مما يجعل المضمون له علاقة بانتفاضة الأقصى وتشمل شروحات أرفقها الأطفال أينما ارتأوا حاجة. ثم تمت مقارنة هذه الرسومات برسومات سابقة كان الرسام كمال بلاطة قد نشرها في كتاب له في عام 1990.

من العجيب أن هذه الكاتبة تشير في دراستها إلى أن رسوم الأطفال الهنغاريين للحرب بمقارنتهم مع رسوم الأطفال الفلسطينيين تبدو أكثر دموية وبشاعة من رسوم الفلسطينيين فهي للأطفال الهنغاريين تعني الموت والوحشية والفوضى بينما للفلسطينيين كانت فكرة الحرب أوسع، هل هذا لأنها عالمهم الوحيد؟

صورة الحرب للأطفال الفلسطينيين تشمل الحجارة، المقاليع، الإسرائيليون يطلقون النار، بشكل عام ربط الأطفال حياتهم بوقائع الانتفاضة فاندمجت نشاطاتهم اليومية بالحرب وحواجز التفتيش والصدامات، أما من ناحية من يظهر في هذه الصور فإن أطفال فلسطين يعبرون عن الحرب التي يعيشونها بأنفسهم فيصورون أنفسهم ويبرزون الحجارة والأعلام «أسلحتهم» مقابل البنادق والدبابات الإسرائيلية ويضعون جهداً في إبراز تفاصيل لباس الجنود مقابل لباس الأطفال ويعبرون ذلك جهداً وتفصيلاً وألواناً إضافة للخيال. كما تعكس رسومات الأطفال الفلسطينيين مقارنة بالهنغاريين فهما لنتائج الحرب فعبروا عن الاعتقال والتحقيق والمواجهات كجزء من تجربتهم.

تشير الكاتبة كذلك إلى أن رسومات الأطفال الفلسطينيين تظهر وجوها فيها تعبيرات مبهمة مقابل الرعب والألم الذي يمكن أن تظهره رسومات الأطفال الهنغاريين، بشكل عام هي أكثر هدوءاً للكاتبة، ويلجأ الأطفال الفلسطينيون كذلك إلى دفاعات تعبر عن نفسها بصور مرعبة تملأ أذهانهم ويجتاحهم الألم فعندما يسترجعونها ويرسمونها تظهر في الرسومات ضحية بلا حراك ومشاهد المدن تتراجع لعقله الباطن ولا يجدون هنا ضرورة لرسم الحقيقة بل يمنعونها فالضحية لديهم لا تنزف بل تبتسم مما يخفي تناقضاً هائلاً في المضمون، كما أن طبيعتهم الوجدانية لا تنسجم مع المحتوى الحقيقي للرسمة.

وهكذا ينصب التركيز في الرسومات الفلسطينيه على القضية الوطنية فالموت لا علاقة له بالحزن والألم بل عبر عن نفسه بالجوانب الإيجابية للانتفاضة مثل الوحدة والتلاحم والمشاركة والمظاهرات والاحتجاجات ومن المثير للإعجاب كما تورد الباحثة أن الحرب عندما تكون الحدث اليومي والدائم كما في حالة الأطفال الفلسطينيين يصبح من غير المجدي وللحفاظ على القيمة العقلية التركيز على النتائج المأساوية والخسائر البشرية، ويتبدى ذلك في رسومات الأطفال الفلسطينيين الذين تمثل قصة محمد الدرة مكانة كبيرة في رسوماتهم ولا تبدو مروعة كما ظهرت في التلفزيون، ويتوحد هؤلاء الأطفال مع رسوماتهم ويخلقون مشاهد حقيقية وذاتية ولا يمضون وقتاً في رسم خلفيات لهذه الصور وتبدو الشمس أحياناً كرمز للسعادة والبهجة هنا يأملون بها أو لأن أحداثهم عادة ما ترتبط بالأيام المشمسة، مما يجعل من ذلك أمراً شائكاً يحتاج لمزيد من البحث. وتأتي حقيقة أن أغلبهم يعيش في المخيمات لتعكس عدم وجود بيوت منفردة في رسوماتهم ولا تظهر حتى مساحة خلفية من المناظر الجبلية أو الحقول.

وهكذا تضمنت رسومات أطفال فلسطين بنادق ودبابات وطائرات مقاتلة مرسومة بعناية وتحتل أغلب الرسمة. ويصاحب هذه الرسومات بعض النصوص أحياناً التي تعكس حضور البندقية كحالة حرب في الذهن الفلسطيني.

يعتبر هذا الكتاب وثيقة أساسية توثق معاناة الأطفال بعيدة المدى لتجارب الحرب والنزاع التي رغم أهميتها في صحة المجتمعات إلا أنها مهملة من قبل الباحثين وأجهزة الإعلام. فهؤلاء الأطفال بمعاناتهم وصحتهم العقلية هم أجيال الغد وصحتهم قد تكون الضمان لصحة تصرفاتهم واندفاعاتهم المستقبلية ومن هنا تأتي أهمية السلام والعلاج لهم من أجل مستقبل واعد وآمن لهم وللأجيال المقبلة.

مسؤوليتنا؟ الجميع يتحمل مسؤولية التعلم والتنبيه لمخاطر العنف على الأطفال والمجتمعات والجميع يتحمل مسؤولية إحقاق الحق وإشاعة السلام في فلسطين وغيرها من الأماكن التي تعاني من العنف.

مقالات

رسوم كتب الأطفال

بقلم: ياسر محمد مرسى السيد دويدار
الإسكندرية

تفضل صور الراديو:

يقول رسام كتب الأطفال الإنجليزي «مايكل فورمان» الذي زار مصر سنة 1992: «لا يكفى أن يزين الفنان الصفحة برسومه، بل عليه أن يضيف شيئا إلى القصة... لقطة أو اتجاها، وفي الوقت نفسه لا يجب أن تفسر الرسوم كل شيء، وإلا فإنها لن تترك لخيال القارئ فرصة للانطلاق».

لقد سئلت طفلة ذات يوم عما إذا كانت تفضل التليفزيون أم الراديو، فقالت إنها تفضل الراديو لأن «صوره» أفضل من التليفزيون، وهي تقصد طبعا الصور التي ترسمها بخيالها، ومعنى ذلك أن على الفنان أن يفسح لخيال القارئ مجالا لرؤيته الخاصة للنص في كل موضع يستطيع فيه القارئ أن يتخيل بنفسه صورة للنص وأن يضيف إليه التفاصيل التي أغفل الفنان عن قصد تصويرها.

الطفل والخيال:

ويقول الفنان يوسف فرنسيس في دراسة له حول «الطفل والخيال»: لاحظت خلال الفترة التي قمت فيها بكتابة ورسم « مغامرات سندباد » صعوبة ومسؤولية الكتابة والرسم للأطفال بشكل أسبوعي واكتشفت خطورة النفوذ إلى خيال الطفل. إن هذا الباب المفتوح والصلة الوثيقة بين المغامرة المرسومة وخيال الطفل تستطيع أن تجعل هذا الخيال ينمو أو ينحرف إلى أن مرت سنوات واكتشفت خطورة هذه القضية.

الرسوم بريشة ثلاثة رسامين

فأمام 90 ألف زائر من أنحاء العالم في أخطر مؤتمر عالمي للكتاب أقيم في مدينة نيس بفرنسا، وبحضور 2000 ناشر و125 صحفيا من أطراف الدنيا، ووسط 60 ألف كتاب بين قصة وشعر وأدب رحلات، أعلنت قضية فكرية خطيرة... مرض عصرى يصيب أطفال العالم، «إن خيال الطفل يمرض! خيال الأطفال قد مرض ولابد له من علاج سريع.. سبب المرض معروف. تأثير الاعلانات وحلقات التليفزيون ومغامرات الكومكس.. فكيف يمكن إنقاذه؟! الطفل هو أملنا في حياة أفضل وخياله هو المستقبل!».

بهذا المنطق وقف الناشر الشاب «فرانسوافيدال... يتحدث بمعرض الكتاب الدولي في نيس..

وبهذا المنطق أيضا نال الجائزة الأولى على 20 دولة و2000 ناشر و 600000 كتاب «بالقط سامبولا» الذي يعتبر أجرأ قفزة خطتها مكتبة الطفل للمستقبل!

إذ لأول مرة سيجد الطفل بين يديه قصة كل موقف فيها معادا بالرسم ثلاث مرات، كل مرة بريشة رسام مختلف!!

ويقول فيدال: أطفال اليوم هم رجال المستقبل .. وتشكيل خيالهم وتربية أذواقهم معناه التأثير على الجيل القادم كله.. وعندما وجدت نفسي في مكان المسؤولية أردت أن أرجع إلى قراني أنفسهم، إلى الأطفال، أسألهم ما يريدون.. لم أكن أتصور أن أطفال اليوم في هذا الذكاء. لقد ضاقوا من سذاجة الكتب التي نطلق عليها كتب الأطفال. واجتمعت بمجموعات متعددة منهم أكثر من مرة وسجلت آراءهم، وخرجت في النهاية بنتيجة تكاد تكون مشتركة.. فمعظم الأطفال قالوا لي: «نحن لا نريد أن تحددوا لنا خيالنا!» وكان الطلب غريبا، معناه العملي أن أطبع كتبا صفحاتها بيضاء وأترك لخيال الطفل أن يرسم ما يشاء!.. ولكن أخيرا سألت نفسي: لماذا لا أقدم للطفل قصة مرسومة بأكثر من أسلوب، ومن خلال الرسوم المقدمة يستطيع هو أن يستخلص بخياله من كل ما يراه الصورة القريبة من نفسه؟! وبرغم أن الفكرة قوبلت بالسخرية فإنني دفعت بها إلى حيز

التنفيذ، وها هي ذى النتيجة أمامك.. ابدأ العالم كله يقلدها، وأنا سعيد بذلك... أن أستطيع تغيير ذوق الأطفال إلى الأحسن وأطلق خيالهم ليختار ما يشاء.

تابعت مغامرات «القط» وهو على القمر بريشة الرسامين الثلاثة وسألت فيدال: لقد وجدت لغة جديدة للشكل... هل وجدت أيضا لغة جديدة للمضمون؟

أجاب: «بالنسبة للطفل فالشكل هو الأساس... إنه يدخل إلى الموضوع من نافذة الرسم».

إن الرسم يعين خيال الطفل على الانطلاق ويشكل صورا ذهنية عن المواقف والأفكار، لذلك فإن الرسوم التي يرسمها رسامون مبتدئون أو غير متخصصين في الرسم للأطفال أو مجرد رسامين مهرة يفتقدون إلى الروح والذوق الفني، كل هؤلاء يمكن أن يؤثروا تأثيرا سلبيا في ذهن الطفل وخياله لأنهم يحبسون خيال الطفل في آفاق محدودة.

الطفل لا يعرف إلا ما يتقبله بخياله

ويقول فنان مصر الكبير حسين بيكار الذي فقدناه أخيرا: لقد ظهر في عالم كتاب الطفل فنانون عالميون متخصصون صوروا بحرية كاملة وبأسلوب غاية في التحرر، صورا لم تصدم الطفل ولم تروعه، بل تقبلها بقلب أكثر تفتحا من البالغ، إذ إن خيال الطفل لا يرفض شيئا ولا يعرف غير حقيقة واحدة هي ما يتقبله خياله.

والطفل بطبيعته مخلوق مغامر يعمل دائما على تخطي محيطه الضيق إلى آفاق بلا حدود، ويحرص على أن يعوض ضعفه بقوة تختمر في مخيلته، ويصنع لها الأبطال ذوي القوة الخارقة، لذلك لا تروعه الشطحات الفنية ولا يزعجه التعبير الحر غير المتزمت، بل يعتبره صدى لتطلعاته غير المقيدة وانطلاقاته في الآفاق التي لا تحدها حدود.

إن كتب الأطفال الحديثة هي في الواقع معارض متجولة يشاهد فيها الطفل أحدث الاتجاهات والمدارس الفنية يرحب بها في خياله المتفتح دون تحفظ ويتعرف على لغة العصر في المجال الفني.

ويؤكد كل هذا فنان رسوم كتب الأطفال الروسي «فيدور ليمكول» عندما يقول: «إن رسوم كتب الأطفال ليست فقط رسوما توضيحية تعتمد على محتويات النص القصصي، بل هي مكملة للنص بشكل متناسق وليست تكرارا له، بل إن الفنان يضيف عددا وافرا من المواد المساعدة غير المذكورة في النص وبهذه الطريقة يعيد خلق السمات المميزة لكل شخصية من شخصيات القصة».

الأطفال والرسوم:

وعندما يقول طفل في الثالثة إنه يقرأ فمعنى هذا أنه يتأمل صورة في كتاب ويعتبر عملية التطلع إلى الصورة «قراءة» إنه يردد أسماء الأشياء التي في الصور ويقلد أصوات ما بها من حيوانات.

وفي سن الرابعة تصدر عن الطفل تعليقات تدل على المشاركة الوجدانية لما في الصور: «مسكين الولد.. وقع على الأرض.. لا تبك...» ويخلق من الصور أصدقاء له يستمدهم من الشخصيات المرسومة في الكتب التي ربما لا تتضمن أية كلمات.

وحتى سن السابعة تأخذ الكلمات القليلة المكتوبة بحروف كبيرة حيزا صغيرا بجوار الصور، يقرؤها الكبير للصغير أو يتعلم الصغير قراءتها عندما يبلغ السادسة أو السابعة، لكن تظل الصورة هي البطل الحقيقي لكتب صغار الأطفال.

إن كتب الأطفال الصغار تتميز باعتمادها الرئيسي على الرسوم البسيطة الملونة الواضحة التي تقوم بدور أساسي في جذب اهتمام الطفل وفي تنمية تذوقه الفني. ذلك أن حصيلة الأطفال اللغوية لا تمكنهم من قراءة الموضوعات التي تقدمها إليهم بالكلمات، في حين ينتقل المعنى من خلال الصورة للأطفال في كل الأعمار مهما اختلفت اللغات أو اللهجات.

إن الكلمة المكتوبة تستدعي بعض الجهد لقراءتها وفهمها، في الوقت الذي لا تستدعي فيه الصورة ذلك، لأن الطفل يجد المتعة في التطلع إلى الصورة مع سهولة فهمها وطول فترة التأثير بها، لأنها تخاطب بصر الطفل وعقله وخياله كما تناسب اعتماد الأطفال على البصر في التعرف على العالم المحيط بهم.

إن الرسوم ليست مجرد عنصر من عناصر إخراج الكتاب، بل هي مادة حية لها قيمتها الجمالية والثقافية الكبيرة، وقد تفوق المادة المكتوبة في تأثيرها في بعض الأحيان خاصة في قدرتها على توضيح كثير من الوقائع والمفاهيم.

إن الأطفال لا يفهمون المجردات، وكلما كانت تربية الطفل عن طريق حواسه قوية كان تعليمه عن طريق المجردات فيما بعد أسهل وأقرب إلى النجاح.

وعبر مسيرة الإنسان الطويلة ظلت الرسوم أداة للتعبير، واعتبر شيشرون (106 ق.م. 3ق.م) أن للرسوم أهمية كبرى في الاتصال لأنها تساعد على تذكر المجردات. وقال سينكا (4ق.م.65.م) إن الناس يصدقون الرؤية أكثر من تصديقهم الكلام.

وما أعظم وقع الصورة في نفس الطفل وما أعمق أثرها على صفحة مخيلته البالغة الصفاء... صورة تعكس الحياة من حوله، لذلك يعلق علماء التربية الأهمية القصوى على دور الصورة في تكوين وتثقيف الطفل، فلا عجب أن تهتم دور النشر بالجانب الفني في كتاب الطفل فتنفق عليه بسخاء وتستعين له بأكبر الفنانين وألمعهم اسما.

إن هناك رأيا عاما على اتساع العالم كله يرى أن تأثير الصور في كتب الأطفال المصورة أمر لا يمكن التقليل من أهميته.

فبالنسبة للطفل الصغير، فإن التعرف على الأشياء والأشخاص في كتاب مصور يعني السعادة والإحساس بالتفوق في الوقت نفسه، كما تقوم أيضا بإثراء معرفة الطفل وقدراته على التخيل.

وقبل سن المدرسة الابتدائية، وفي السنوات الأولى من المدرسة الابتدائية، فإن الكتب المصورة تمكن الطفل من تطوير وتنمية حاسته النقدية، وتعاونه في التغلب على الصراعات الداخلية، كما أنها وسيلة مثالية لحفز وإثارة وتنبيه التفكير الخلاق وحب الكتب.

إن اصطلاحات «جيد» أو «فني» تشير إلى القوة الخلاقة والصدق والأصالة التي يهدف المصورون المجيدون إلى إبرازها من خلال كتب الأطفال.

وعلى وجه الخصوص فإنه في الوقت الذي تنمو فيه وسائل الاتصال البصرية، يجب أن ينال الطفل الفرصة ليزداد إحساسه رهافة تجاه أشكال الرسم والصور، وذلك حتى نزيل الأثر السيئ للمطبوعات التي بدلا من أن تهدف إلى التربية تهدف فقط إلى أغراض تجارية.

الفنان الذي يرسم:

إن الفنان الذي يرسم كتب الأطفال لابد أن يفكر بالصورة، وهو أسلوب تفكير الأطفال نفسه قبل سن السادسة، لذلك فإننا نجد كثيرا من كتب الأطفال التي تفوز بجوائز عالمية قد رسمها فنانون هم أنفسهم الذين كتبوا نص القصة، وبذلك استطاعوا أن يضعوا الكلمة في خدمة الصورة وليس العكس.

إن الفنانين الذين ينجحون في رسم كتب الأطفال لابد أن يكتسبوا خبرة واسعة وعميقة في عالم الطفل، وأن يعايشوا خيال الأطفال وأن يتصوروا الحياة من وجهة نظر الأطفال وبأسلوب الأطفال في التصور والتخيل.

ولاشك أن الموضوع الذي يكتبه المؤلف هو الذي يحدد موضوع رسوم كتابه. ذلك أن أهم هدف من رسوم كتب الأطفال أن تقرب وتوضح مفهوم الكتاب وتعكس فكره ومضمونه.

إن الصورة بطاقة دعوة، إنها تمد يد العون للقارئ وتزوده بمفتاح، أو توحي له بأنه سيجد متعة في تعلم تلك الخطوط المنحنية التي تتألف منها الكلمات.

وتتضافر الكلمة مع الصورة لتروي القصة، فالصورة تعمل على تحويل الأشياء الغريبة أو البعيدة عن خبرة القارئ الصغير أو غير المألوفة له إلى أشياء يمكن للقارئ إدراكها.

لذلك فإن الواجب الأول لمصور كتب الأطفال أن يعرف جيدا نص الكتاب، ولا يمكن لمصور ممتاز أن يخطئ في تصوير الكتاب فيرسم شعرا أشقر بدلا من الأسود أو قمصانا بدلا من المعاطف. وهذه قاعدة تنطبق بوضوح على المرحلة التي يوجد فيها نص مقروء بجوار الرسوم التي يضعها الرسام.

لكن في المرحلة قبل سن السادسة فإن الصورة تكون لها الصدارة، وهو ما يحتاج إلى بعض التفصيل. فمن بداية الشهر السادس من عمر الطفل يحب الأطفال تأمل الصور الزاهية الألوان للأشياء البسيطة المألوفة في محيطهم مثل المقعد والملعقة والقطة والكلب.

ومن بداية الشهر الثاني عشر يحب الطفل مشاهدة صور الأشياء المألوفة له وأيضا صور الأشياء غير المألوفة له، مثل الحيوانات التي لن يراها إلا في سن أكبر في حديقة الحيوانات مثل الزرافة أو الحمار الوحشي. ويفضل في هذه المرحلة أن تكون الصور للأشياء وهي في حالة ساكنة وأبعد ما تكون عن الحركة، مثل كرة ساكنة أو بطة لا تتحرك، فلا تتضمن الكتب مثلا صورة قط يلعب بالكرة ولا صورة بطة تأكل حبوبا، ذلك أن القدرة على فهم الصور لاتزال في أولى مراحلها.

ويلجأ بعض الفنانين مثل الفنان الهولندي «ديك برونا» بالإضافة إلى حرصه على أن تظل شخوصه ساكنة، إلى جعل شخوصه تنظر إلى المشاهد دائما متجنبا رسم أي وجه في وضع جانبي.

إن الذين يخرجون الصحف يدركون أن غلاف المجلة الذي يحتوي وجها كبيرا ينظر مباشرة إلى المارة يبيع أكثر. وفي معظم البلاد الآن ينظر من يقرأون نشرة الأخبار في التلفزيون مباشرة إلى عيون المشاهدين، وهم يفعلون ذلك لأنهم يدركون ما للصلة المباشرة بالعين من أثر في جذب الانتباه.

أما بعد تمام عامين من عمر الطفل إلى ثلاث سنوات فإن الطفل يحب أن يرى شيئا يحدث في كل صورة. مثلا، ولد يلعب بالكرة أو بنت تعطي البطلة حبوبا. وبعد هذه السن فإن الحركة والحيوية تحببان الصور إلى الأطفال.

ويحب الطفل التكرار في كل صورة، أي يحب أن يجد شيئا يعرفه يتكرر في كل الصور أكثر مما يحب الصور التي يربطها موضوع واحد ولكن تخلو من التكرار. وفي هذه السن وحتى سن الخامسة، يفضل الأطفال صور الناس والحيوانات أكثر مما يحبون الموضوعات غير الحية. كما يحب الأطفال رؤية الرسوم التي بها أطفال مثلهم.

وبعد العام الثالث إلى ثلاثة أعوام ونصف العام يمكن للرسوم الواضحة أن تسرد قصة بسيطة جدا. إن الطفل يبدأ في اكتساب القدرة على تفسير الصور كما يمكن أن يعيد سرد القصص البسيطة من واقع رسومها.

وبعد الرابعة وإلى الخامسة يحب الطفل الصور الهزلية والخيالية، كما يفضل الصور المتقنة الرسم مع بساطة الخطوط والألوان الزاهية.

وبعد الخامسة تكون الرسوم مرتبطة بموضوع الكتاب معبرة عنه، وذلك طبقا لاحتياجات الأطفال في مختلف الأعمار.

البساطة والوضوح:

إن قراءة الصور ليست عملية سهلة في كل الأحوال، والكثير من الصور يقف الكبار أمامها حيارى لفترة غير قصيرة، لأن الصورة في حد ذاتها ليست الشيء ذاته بل هي تمثيل للشيء. لذا وجب أن تكون الصورة المقدمة للطفل بسيطة واضحة، خالية من التعقيد والتفاصيل المربكة، وذلك حتى تتناسب مع خبرات الطفل ومعلوماته وقدراته.

إن فهم الرسوم يرتبط بسن وخبرة الطفل نفسه شأنه في ذلك شأن اللغة اللفظية، بل يسمي البعض الرسوم «لغة غير لفظية». إن الرسوم باعتبارها عناصر بصرية تعتمد على نمو حاسة البصر كما تعتمد على نمو قدرات الطفل العقلية عموما.

لذلك فإنه كلما صغر سن الطفل وجب الإقلال إلى أقصى حد ممكن من تفاصيل الرسوم المقدمة إليه مع الاهتمام بوضوحها الشديد، ذلك أن كثرة التفاصيل أو الإعتام أو الغموض في بعض جوانب الصورة يربك الطفل ويشتت اهتمامه ويؤدي به إلى صعوبة الفهم، ثم ينتهي به إلى الانصراف عن الكتاب.

فبالنسبة للسن الصغيرة جدا يجب أن نقدم الرسوم في وحدات مكبرة شبه منفصلة عن غيرها، مع إبرازها بأقل تفاصيل ممكنة، وهو ما يمكن أن نسميه «اللقطة المقربة».

إن البساطة التامة للرسوم هي المميز المهم لرسوم كتب هذه المرحلة. وفي الظاهر قد يبدو أنه لا تربطها بالواقع إلا أقل العلاقات، ولكن جاذبيتها تكمن في أن هذه العلاقة القليلة لاتزال تحتوي على الخصائص الأساسية للواقع. إنها ربما لا تكون الواقع ولكنها تبسيط وتمثيل للواقع. إنها تتميز بالوضوح والصراحة والمباشرة الطفلية، إن فنان كتب صغار الأطفال يبحث عن الوضوح قبل كل شيء.

وأحد المعايير لقياس درجة الوضوح والبساطة في الصورة هو عدد الثواني المطلوبة لكي يحيط الطفل بكل شيء في الصورة، فكلما قل عدد الثواني اللازمة ليحيط الطفل بما تدل عليه الصورة، كانت الصورة أنجح في بساطتها.

وبعد أربع أو خمس سنوات يمكن استخدام «اللقطة المتوسطة» حيث يمكن إظهار عدد قليل من الأشياء وأجزاء الأشياء في الصورة على أن تكون واضحة وتفاصيلها معقولة.

وبعد سن الثامنة أو التاسعة يمكن استخدام «اللقطات العامة» التي تشمل الكثير من الأشياء ومن التفاصيل، ولكن حتى في هذه السن لا يجب الإسراف في استخدام هذه اللقطات العامة، بل يجب أن يتضمن الكتاب عددا معقولا منها مع الاهتمام باللقطات المتوسطة والمقربة.

إننا في كتب الأطفال يجب أن نعتمد أساسا كلما كانت موجهة إلى صغار السن على الرسوم الكبيرة التي تملأ الصفحة، وكلما تقدم السن الذي نقدم له الكتاب أمكن استخدام رسوم تتكون من عدد قليل من الأشياء المكبرة مع خلفيات في غاية البساطة. وفي السن الأكبر يمكن أن يشمل تكوين الرسم مختلف الأشياء. وهذه قواعد تفرضها ضرورة مساعدة الطفل على التركيز بحيث لا نشغله بالتفاصيل ولكي نجنبه الإثارة وتشتت الانتباه.

لكل هذا فإنه بالنسبة للأطفال أقل من 8 سنوات يجب عدم استخدام الصور الفوتوغرافية، ذلك لأنها من ناحية حافلة بالتفاصيل، ولأنها من ناحية أخرى تحتوي على جميع الألوان ودرجاتها، وهو ما يربك الطفل ويجعله غير قادر على فهم الصورة.

الأسلوب:

ومن أهم المبادئ التي يلتزمها الفنان الذي يرسم كتب الأطفال، أن يهدف إلى إبراز فكرة الكتاب، وأكثر ما يساعده على ذلك أن يستخدم في رسومه أساليب أقرب إلى الواقعية مع التبسيط. ومعنى الأساليب الواقعية أنها تعبر عن العالم المحيط بالطفل بطريقة مفهومة ليؤدي الكتاب وظيفته حتى يفهمه الطفل. وليس معنى هذا أن الفوتوغرافية مطلوبة، بالعكس، فإنها غير مطلوبة، والمطلوب هو الخيال والابتكار والأشكال الجديدة. فالأسلوب الذي يناسب الكتب التاريخية والدينية والعلمية والرياضية غير الأسلوب الذي يصلح للأساطير الخيالية والشعبية وهما يغايران الأسلوب الذي يناسب الحكايات الفكاهية.

ولكن في كل هذا يظل معيار نجاح رسوم الكتاب هو وضوحها، أي سرعة فهم الطفل لما تدل عليه.

إن حب التجريب قد يستغرق الفنان أحيانا فيحاول استخدام أساليبه الفنية البعيدة عن البساطة والوضوح، ولكن الكتب التي يرسمها مثل هذا الفنان قد تكون جيدة من ناحية سمعة الفنان التشكيلية وقد تلاقي نجاحا بين الأدباء الذين يتذوقون أساليب الفن المتنوعة ربما لا تكون ملائمة لحاجات الأطفال، ذلك أنه لابد من دراسة حاجات الأطفال حتى تلائم أساليب رسم كتبهم هذه الحاجات، وأهم هذه الحاجات هو الحاجة إلى الوضوح والبساطة والفهم بغير أن نضحي بالقيم الجمالية.

إن كتب الأطفال تطبع للأطفال ولا تطبع للفنانين ولا لأصدقاء الفنانين، إن كتب الأطفال لا تقدم لجمهور المعارض بل للآلاف من الأطفال العاديين. وليس معنى هذا أننا ضد الأساليب الجديدة المبتكرة، لكن في حدود أن تعكس الموضوع نفسه.

إن الرسوم في كتب الأطفال يجب قبل كل شيء أن تساعد على أن تجعل القراءة أكثر سهولة ومتعة.

الألوان:

وقد لوحظ بالتجربة أن أكثر الألوان استحواذا على اهتمام الأطفال صغار السن وجذبا لأبصارهم، هي الألوان الأساسية الثلاثة: الأصفر والأزرق والأحمر بشرط أن تكون زاهية، لذلك يجب أن يكون لهذه الألوان الأساسية الثلاثة النصيب الأكبر في الرسوم المقدمة للأطفال صغار السن، دون أن نمزج بينها ويغير أن نستخدم أية ظلال أو تدرجات من اللون الواحد، وذلك حتى لا يرتبك الطفل الصغير أو ينفر من الصورة.

وهذه قاعدة يجب التزامها في كل ما نقدمه للأطفال الصغار، سواء كان كتابا أو مجلة أو مسرحية أو فيلما، وهو أمر نلاحظه بوضوح وبتركيز شديد في أفلام الكارتون الأجنبية الموجهة إلى الأطفال.

ويحسن أن تكون مساحات الألوان مفصولة عن بعضها، كأن تحيط بكل مساحة خطوط سوداء تحدد حافات تلك المساحة. وأن يستخدم في تلوين كل مساحة لون واحد صافي غير مختلط بأية ألوان أخرى.

ولكن بعد سن الرابعة أو الخامسة يمكن أن نضيف إلى الألوان الأساسية الثلاثة ألوانا أخرى مثل الأخضر والبرتقالي، وبعد سن السابعة يمكن أن نستخدم أيضا عدة درجات من اللون الواحد ولكن بحذر.

وبعد تسع سنوات أو عشر يمكن استخدام كل الألوان ودرجاتها المختلفة، لذلك فإنه في هذه المرحلة يمكن أيضا استخدام الصور الفوتوغرافية الملونة.

كذلك فإنه من أهم المبادىء التي يلتزمها الفنان الذي يرسم كتب الأطفال أن رسوماته من ناحية التلوين والتكوين يجب أن تنمي في الطفل إحساسه الفني وتذوقه الجمالي.

حدود استخدام الألوان:

لكن يلاحظ أنه وإن كانت الألوان ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها في الكتب الموجهة إلى الأطفال قبل السادسة، فإنه في المرحلة من السادسة إلى التاسعة تقل أهمية اللون ويمكن الاكتفاء في هذه المرحلة برسوم ذات لونين أو لون واحد، وإن ظل أطفال هذه السن يستمتعون بالألوان. إن هناك كثيراً من الفنانين قد حققوا نتائج مدهشة باستخدام لونين فقط، وهو أمر أقل تكلفة بكثير من استخدام أربعة ألوان.

إن وجود الصور على كل صفحة من صفحات الكتب الموجهة لهذه السن ضروري للمحافظة على حماس الأطفال لمواصلة القراءة، ولكنها يمكن أن تكون صوراً بالأسود والأبيض فقط أو بلونين.

أما في المرحلة بعد التاسعة أو العاشرة فيمكن الاقتصار على الرسوم التخطيطية البسيطة، فالأطفال في هذه المرحلة لا يكونون في حاجة إلى كثير من الصور الملونة أو غير الملونة مثلما كانوا في السن الصغيرة. إنهم طبعا سيرحبون بالرسوم الملونة ويتذوقونها لكنها لم تعد أساسية في حفزهم على القراءة.

روح المرح:

والرسوم مع وضوحها وبساطتها وقربها من الواقع وخلوها من التفاصيل، يجب أن يشيع فيها روح المرح. فالأطفال لا يتحملون من الحياة جانبها المؤلم أو المحتم بل يبحثون دائماً عن الجانب المضيء والمرح، وهو أمر لابد من مراعاته حتى في رسم الموضوعات المحزنة أو المؤلمة.

ولكن يجب التنبه إلى أن نجاح كتب الأطفال لا يكون بقدر ما تثير من ضحك بل بقدر ما تترك في نفس الطفل من أثر إيجابي.

ولكن ضرورة تقديم الرسوم بأسلوب فيه قدر كافٍ من المرح أو الطرافة هو شرط أساسي لتقبل الأطفال ما يقدم لهم من رسوم، مع مراعاة أن تجيء الفكاهة نابعة من نفس الموضوع وألا تجيء مقحمة عليه.

إن الأطفال يقفون موقفا مرحا من الحياة، إنهم يواجهون الحياة بسعادة وإيجابية، وعلى رسوم

كتب الأطفال أن تحرص على إذكاء الأطفال هذا الإحساس، مع الحرص في نفس الوقت على ألا ينقلب عنصر المرح إلى جعل العمل الفني نوعاً من التهريج بقصد الإضحاك، وإلا انصرف الطفل عن تأمل العمل الفني إلى البحث عن الرسوم المثيرة للضحك وبذلك نفقد طريقنا السليم مع الأطفال.

العلاقة بين مساحات الرسوم ومساحات النص المكتوب:

ومن الضروري وضع الرسوم في أماكنها المناسبة على الصفحات بحيث تشكل الرسوم مع المادة المكتوبة وحدة فنية متكاملة من خلال الترابط الوثيق بينهما.

ويهتم الناشرون حاليا بأن تكون كل صفحة من صفحات الكتب الموجهة للأطفال قبل سن التاسعة محتوية على أحد الرسوم، للمحافظة على حماس الأطفال للاستمرار في القراءة. ذلك أنه من الخطأ تركيز الصور في مكان واحد وترك فصول أو صفحات طويلة من الكتاب بغير صور. كما يهتمون بعدم فصل مساحة الصور عن مساحة الكلمات بحيث يتكون منهما وحدة فنية وثيقة.

وبالنسبة لكتب المرحلة الابتدائية لا يجب أن تطغى الرسوم على المادة المكتوبة كما هو الحال في كتب المسلسلات الهزلية «الكومكس» والتي تحصر خيال الأطفال في آفاق محدودة وتجعلهم باحثين عن الإثارة بدلا من الاستمتاع بالخيال كما تنفرهم من القراءة الجادة وتجعلهم باحثين عن القراءة السهلة. ذلك أن الرسوم والمسلسلات الهزلية لا تستلزم في العادة سوى قراءة كلمات قليلة قد تكون غير ذات معنى في حين تقدم الرسوم كل الوقائع والأحداث، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى إضعاف قدرة الأطفال القرائية.

نسبة مساحة الرسوم إلى المساحة الكلية للصفحة

وفي مرحلة ما قبل المدرسة لا تحتوي الكتب إلا على الرسوم، يضاف إليها أحيانا كلمات قليلة تشرح الصورة أو القصة لتعاون الآباء على الحديث عنها أو سردها للأطفال.

وفي كتب بداية تعلم القراءة يخصص للكتابة ما لا يزيد عن 20٪ من الصفحة والباقي للرسوم على أن يكون عدد الكلمات قليلا جدا وحجمها كبيرا جداً.

ثم تأخذ المساحة المخصصة للكتابة في الزيادة إلى أن تتوازى مع المساحة المخصصة للرسوم في السن من الثامنة إلى التاسعة، بحيث يتعاونان في إعطاء المعنى الكلي للموضوع.

ثم تزداد المساحة المخصصة للنص، في حين تتقلص المساحة المخصصة للرسوم، إلى أن تصبح الرسوم في الكتب الأدبية والقصصية مقصورة على شغل مساحة لا تزيد عن 15 أو 10٪ من مساحة الصفحات في الكتب الموجهة إلى سن الخامسة عشرة، وذلك لتتناسب مع مستوى التحصيل اللغوي للطفل ولإشباع فضوله إلى المعرفة والعلم، ولأنه أصبح يتطلع إلى أن تكون كتبه غير مصورة مثل كتب الكبار، أما الكتب العلمية أو كتب المعلومات فيمكن أن تزيد المساحة المخصصة للرسوم على هذه النسب.

هل يرسم الأطفال كتبهم؟

هناك رأى يقول بأن نترك للأطفال رسم صور كتبهم.

وقد أجريت بعض التجارب النادرة في هذا المجال لكنها لم تستمر.

والواقع أن هذا الرأي يتجاهل تفرقة أساسية ومهمة في مختلف مجالات ثقافة الأطفال. فهناك دائما ما يقوم به الأطفال كنوع من اللعب أو التعبير أو التنفيس سواء كان رسما أو تمثيلاً أو أغنية أو رقصة، وهناك في الجانب الآخر ما يقدمه الفنانون الراشدون للأطفال في كتبهم وأفلامهم وأغنياتهم وموسيقاهم وبرامجهم في الإذاعة والتليفزيون.

وما يقوم به الأطفال ضروري لنموهم في مختلف النواحي، أما ما يقدمه الكبار للأطفال فهو ضروري ليكون وسيلة لصقل تذوق الصغار للفنون ولتعليمهم وتربيتهم.

إن ما يقدمه الأطفال هو أمر خاص بكل طفل وليس مقصوداً به أن يكون وسيلة تواصل مع الأطفال الآخرين. أما ما يقدمه الكبار للأطفال فهو فن مقصود به أن يصل إلى أكبر عدد من

الأطفال. يقول «فيكتور لونيفلد» في كتابه «طفلك وفنه»: «الطفل يعبر في فنه عن عالمه هو بوسائله الخاصة، فماري تختلف عن سميحة وكلاهما يختلف عن فريد. وإذا لم يطلب منهم الكبار أن ينتجوا رسما جميلاً فلن يخطر ذلك ببالهم».

ويقول الدكتور «حمدي خميس» في كتابه (طرق تدريس الفنون): «إن الرسم بالنسبة للطفل لغة أي نوع من التعبير أكثر من كونه وسيلة لخلق شيء جميل. والطفل في السنوات الأولى يرسم وجهة نظره في الأشياء ولا يرسم ما يراه».

كما يقول الدكتور «محمود البسيوني» في كتابه «سيكلوجية رسوم الأطفال»: «الإيجاز الشكلي ظاهرة ملاحظة في نمو الفرد، فهو يمر في أثناء نموه بخبرات متعددة، ولكي يستفيد من هذه الخبرات بسهولة واقتصاد عندما يواجه مواقف جديدة مشابهة نجده يلخص هذه الخبرات في أشكال موجزه أشبه بالرموز، وهذه الملخصات الرمزية قد أطلق عليها علماء النفس الذين درسوا رسوم الأطفال الموجزات الشكلية أو ظاهرة الإيجاز الشكلي».

ويقول: «إن أنواع الموجزات الشكلية التي يستخدمها الأطفال في تعبيراتهم لها صبغة فردية، أي أننا إذا طلبنا على سبيل المثال في فصل مكون من أربعين تلميذاً رسم أي موضوع كالتعبير عن حيوان مثلاً، فإننا حتما سنحصل على أربعين صورة لهذا الحيوان ولكل صورة فرديتها، هذا إذا كان النمو يسير بخطى طبيعية».

والواقع أن أنواع الموجزات الشكلية تشبه بصمات الأصابع التي لها فرديتها في حالة كل إنسان، فالإيجاز الشكلي الذي يستخدمه فرد معين يميز هذا الفرد ويعبر عن شخصيته.

ويقول هربرت ريد في كتابه (التربية عن طريق الفن): «الطفل (الفنان) يستخدم في الوقت الواحد لرسم نفس الموضوع الواحد أسلوبين مختلفين، أحدهما للإرضاء الشخصي لمزاجه والآخر لإرضاء غيره من الناس».

كل هذا يؤكد الصيغة الفردية الخاصة لتعبير كل طفل عن نفسه بالرسوم وهو ما يجعل هذه الرسوم غير صالحة لأن توضع في الكتب التي نقدمها إلى مختلف الأطفال الآخرين، لأنهم ربما لا يفهمونها.

إن القواعد التربوية تقرر أنه من الخطأ أن نتحدث مع الطفل بنفس طريقته في نطق الكلمات بل لابد أن ننطق له الكلمات نطقاً سليماً حتى يتعلم هذا النطق السليم، فنحن لا ننهره ولا نسخر منه لنطقه الذي يناسب مرحلته العمرية، لكننا نقدم لسمعه النطق السليم لنساعده على النمو في الطريق السليم.

ولابد أن نفعل نفس الشيء في مجال الرسم، فلا نقدم لطفل رسوم الأطفال الآخرين التي هي رموز تعبر عن فرديتهم الخاصة في طور محدد من أطوار تطور رسومهم، بل لابد أن نقدم في كتب الأطفال رسوما يمكن أن يفهمها كل الأطفال وأن تساعد على نمو تذوقهم للفن.

ولكن ليس معنى هذا ألا نستفيد من رسوم الأطفال ونحن نرسم لهم. فمن أهم أدوات من يرسم للأطفال أن تكون لديه مجموعات كبيرة من رسوم الأطفال في مختلف أعمارهم ليدرك من خلالها كيف يرى الأطفال الألوان والأشكال والعالم.

إن الأطفال يؤكدون في رسومهم على الأجزاء الهامة، ويتجهون إلى تبسيط الواقع مع تضخيم ما يهمهم منه، ويستخدمون الألوان للمتعة وليس بقصد مشابهة الطبيعة.. وغير هذا من خصائص رسوم الأطفال التي يمكن أن يستفيد بها من يرسم لهم.

لكن الفنان لا يعد فناناً إلا إذا استطاع أن يصل بفنه إلى أكبر عدد من أفراد الجمهور الذي يتوجه إليه، وهو أمر لا يقصده الأطفال ولا يقدرون عليه.

رسوم الكتب الأجنبية المترجمة:

في مجال الكتب القصصية والروائية، أصبح من الشائع أن تصدر دور النشر الأجنبية طبعات باللغة العربية من كتبها التي تصدرها أصلاً لأطفال بلاد أوروبا وأمريكا واليابان، محتفظة بنفس الرسوم الأصلية مع طبع الترجمة العربية في مكان النص الأصلي.

وقد بدأ يظهر رد فعل واضح في العالم العربي ضد هذا النوع من الكتب، ذلك أن قدرة الأطفال على قراءة الصورة بسرعة وبوضوح ترتبط إلى حد كبير بخبرات الأطفال السابقة. فإذا كانت عناصر الصور من غابات وثلوج ومداخن وقبعات وأزياء وأسطح بيوت مائلة ولون شعر يميل عادة إلى الأصفرار وسحنات أشخاص مختلفة عما اعتاد الطفل القارئ، فإن هذا يقوم حائلاً بين الطفل وبين فهم الصورة بالقدر اللازم لكي يحب الكتاب ويقبل عليه.

هذا بالإضافة إلى أن المشاعر القومية تقف حائلاً أمام تقديم مثل هذه الكتب للأطفال.

فهذه الكتب تقدم للأطفال تصورا بأن الطفل الذي يجدر أن تدور حوله الكتب والذي يمكن أن يكون بطلاً أو يحوز على إعجاب القراء الصغار، هو دائما طفل أجنبي من عالم غريب، ويترتب على هذا أن يحس الطفل القارئ بالدونية والنقص، وهو إحساس يحرص كافة المربين على إبعاد تأثيره عن الأطفال، فهو يعيد إلى الأذهان النظريات العنصرية المغرضة المتعلقة بتفوق جنس على أجناس أخرى.

كما أنه إذا كان من مهام صور كتب الأطفال أن تزيد من معرفة الطفل بعالمه، فإن مثل هذه الصور الغريبة عن الطفل القارئ من شأنها أن تضيع كل الإمكانيات التي يمكن أن تقدمها الكتب بالنسبة لما يمكن أن يكتسبه الطفل من خلالها من معرفة أوسع وأشمل وأدق بمجتمعه وعالمه وبلده.

لكل هذه الاعتبارات أخذت دور النشر الأجنبية نفسها تتنافس في إعادة رسم كتبها برسوم تستمد مادتها من واقع البلاد التي توجه إليها تلك الكتب، كما أن دور النشر الوطنية بدأت تتردد كثيرا في مشاريع النشر المشتركة وأصبحت تفضل أن تكون الرسوم معبرة قدر الإمكان عن بيئة الطفل القارئ، وهو الاتجاه الذي أصبحت له الغلبة.

خاتمة

إن كتب الأطفال إذا كانت جيدة الإخراج ممتازة التصوير، متفقة مع حاجات الأطفال، قد تكلف كثيراً، لكنها ستجد أيضا إقبالاً كبيراً، لما تتيحه للطفل من متعة وتعليم وتنمية لتذوق الفنون وحفز على حب الكتب وتشجيع على الاستمرار في القراءة.

إن كتاباً مصوراً جيد التصوير جدير بكل الجهود التي تبذل في سبيله.